وبلغ جواد باشا حاكم قنديا أهلها المسلمين بأن الجنود العثمانية لا تخرج من كريت اجابة لطلب الدول

وما كان ربك ليهلك القرى

(بظلم وأهلها مصلحون) (*

توالت الفتن على الممالك الشرقية وأوغلت الدول الفاتحة في بلادها ، وولغت في أحشائها بعدما انقضت من أطرافها ، واستدرت بالتجارة اخلافها ، تفنن الطامعون بها في اطماعهم ، ولونوا الفتوح والامتلاك بالوان كثيرة ، منها مايزعج مظهره وتفزع رؤيته ، ويخشى مخبره وتحذر مغبته . ومنها مايبهج منظره وتسر رؤيته . وتخدع غايته وتغر عقباه. ماهي تلك الالوان ؟؟ حماية رجال الديانة المسيحية . رعاية المصالح الخصوصية . وقاية البلاد من الاعداء . اصلاح البلاد ونشر المدنية فيها . الاحتلال الموقت لمعاهدات مخصوصة . الحماية . الاستئجار !!!

كل هذه ألفاظ لا معنى لها الا الاستيلاء والتملك بدون حرب ولا كفاح. وقد نجحت الدول القوية في هذه الحروب السياسية والفتوحات السلمية ، وكادت — لولا تنازعها — تستولي على جميع بلاد آسيا وافريقيا. على أن التنازع ما أوقف تسيارها ولا صد تيارها ، وقصارى ما فعل انه أطعمها الفريسة لقمة

(*) فاتحة العدد الحادي والثلاثين الصادر في ٢ جمادى الآخره سنة ١٣١٦

لقمة فأفادها بما أمنها من تعسر الازدراد وتعذر الهضم اذا هي التهمتها مرة واحدة

هل تنبه الشرقيون لهذه القوارع التي تقع على رؤسهم، والصواخ التي تطرق آذانهم وأصابع الحوادث التي تكاد تفقأ عيونهم ؟ نعم قد تنبهوا وشعروا بالوجع الاليم ، وطفقوا يتململون كما يتململ السليم ، الا قليلا منهم صم بكم عمي فهم لا يعقلون. نعم قد تنبهوا لمصابهم ولكن هل علموا بعلته وأسبابه ؟ كلا سوف يعلمون . ثم كلا سوف يعلمون. لو علموا السبب لاندفعوا الازالة العلة قبل استحكامها ومداواة الداء قبل الايداء (الهلاك) فلا بد من العلم قبل العمل (وهم ينهون عنه وينأون عنه وان يهلكون الا أنفسهم وما يشعرون) كيف يهلك الله الشعوب ويبيد الامم وكيف يديل من الدول دولا وينزع السيادة من قوم ويستخلف من بعدهم قوما آخرين ؟؟

يقول المسلمون ان الدين هو الذي كان سبب سيادتهم وسعادتهم، وان الاعراض عنه هو الذي اوقعهم في الشقاء وانزل عليهم البلاء. ويحتجون بآيات من الكتاب العزيز كقوله تعالى (ان الارض يرثها عبادي الصالحون) وقوله تعالى (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) حقا قالوا ولكن اكثرهم يلهج بالقول عن غير فهم ولا بصيرة متوهمين ان في الدين سرا روحانيا غير معقول، يعد الآخذين به بالنصر والقوة، ويعطيهم الغلب بالخوارق والكرامات !!

ويقول الناظرون في سير الانسان في زمانهم الحاضر والواقفين على تاريخه في الزمن الغابر: ان ضعف الامم وانحلالها وهلاك الشعوب وانقراضها وعزة الدول وامتناعها وسيادتها وارتفاعها كل ذلك جار على نواميس طبيعية وسنن الهية لا تتغير ولا تحور ولا تبدل ولا تحول وقد هدى الله بفضله النوع الانساني

النجدين ، وبين له الطريقين، فمن سار على طريق الترقي والسيادة مراعيا سنن الله تعالى فيهما وصل اليهما سواء كان مؤمنا ام كافرا، ومن سار على طريق التدلي والمهانة وحكمت عليه نواميسهما انتهى اليهما مؤمنا كان ام كافرا، فالدين لا أثر له في عزة الامم ولا في ضعفها واستكانتها والشاهد على ذلك ان جميع الدول الاسلامية اليوم ضعيفة ، ودولة اليابان الوثنية في أعلا درجات القوة والعزة ، بل ان الامم المتمدنة تعتقد ان الدين حجاب كثيف يحول دون الارتقاء لولا ان مزقته لما لاح لها نور العلم بطرق السعادة، وقيد ثقيل لولا ان فكوه لما أمكنهم الايجاف والايضاع والتوغل والارتفاع، ولظلوا يرسفون رسفان {مشي المقيد} من لا تزال القيود في أرجلهم والاغلال في أعناقهم . ومن رأي هؤلاء ان العقبة الكبرى في طريق تقدم الدول الاسلامية هو الدين الاسلامي نفسه، وانهم اذا مرقوا منه رجي لهم اتباع خطوات اوربا وتقدموا كما تقدمت!!.

من كان مبغضا للمسلمين من هؤلاء يسجل عليهم الضعف والانحطاط بل يعدهم بالحمام والموت الزؤام. ومن يحب المدافعة عنهم لا مر ما يقول ان فيهم قابلية للنهوض والترقي والاخذ بأساليب المدنية الجديدة التي سادفيها غيرهم، مستدلا بأن الحكومة المصرية مثلا لا تأبى قبول أي عمل تأتيه الحكومات الاوربية حتى اباحة الموبقات من السفاح والسكر ونحوه ، لكن الشعوب الاسلامية لجهلها لا تجاري حكامها التي نزعت الى الاصلاح الاوربي، ولذلك يحكم علماؤها بكفر الآخذين بالتمدن الاوربي من حاكم ومحكوم، فدليل الترقي (وهو تقليد أوربا على رأيهم) هو عندتلك الشعوب دليل على الانحطاط والتدلي لانهم يعتقدون ان التقدم محصور في التمسك بالدين والجري

على آثار آبائهم الاولين، فيجب على الحكومة تعليمهم وتنبيههم ليساعدوها على الاصلاح والا تعذر النجاح واستحال الفلاح

هذا ملخص مايقوله فينا المتمدنون، ويكتبه في سياستنا الكاتبون، وقد اشتبه على الدهماء منا حقه بباطله، ورأى فيه المنحرفون شبهة على بطلان الدين، وهبوطه بالآخذين به الى أسفل سافلين، لان من المشهود الذي لايمكن انكاره ان المسلمين أمسوا أفقر الامم وأكسلها وأجهلها ودولهم باتت أضعف الدول وأظلمها

ولا فرق بينهم وبين جيرانهم يضاف اليه هذا التقهقر والانحطاط الا في الدين فلا جرم ان الناظر في طبائع الملل يضيف ذلك اليه ويقرنه به واننا نكشف الغطاء عن تحقيق الحق في المسألة لينجلي الصبح الذي عينين فنقول :

قول المسلمين ان الدين هو الذي كان سبب سيادتهم وسعادتهم وان خسران تلك السيادة والسعادة انما جاء من الانحراف عن هديه صحيح، وقول القائلين ان الله تعالى قد جعل لارتقاء الامم سننا حكيمة من سار عليها فاز ومن تنكبها خسرمهما كان دينه — صحيح أيضا، وقد صرحنا بمثله غير مرة (انظر العدد ١٥ من المنار) وقد غالى كل فريق في رأيه فزعم المسلمون ان الانتساب للدين فيه أسرار غير معقولة تعطي أصحابه قوى غيبية تكون بها غلبتهم على من سواهم، وزعم الآخرون ان الدين لا أثر له في الاسعاد بل هو موقع لا ريب فيه في الشقاء، فأفرط القائلون وفرط المارقون، اغترارا بأولى المسلمين، وآخرة الاوربيين، ولم تخرج سيادة المسلمين في أول نشأتهم عن نواميس الكون الا ما أمد الله به نبيه (صلى الله تعالى عليه

وسلم) عند ضعف المسلمين ... بهم بالمعونة الربانية زيادة عن المحافظة على السنن العامة وتلك سنته تعالى مع أنبيائه . ألم تر كيف كان الظفر كاملا والتأييد شاملا في غزوة بدر ووقعة الاحزاب ونحوهما مع قلة المسلمين وضعفهم ، ويوم حنين اذ أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئا وولوا مدبرين ؟ وكيف انكسروا في واقعة أحد لاخلالهم بالسنة الالهية وهي طاعة الرئيس بالحق . وأما أوربا فان الدين لم يكن صادا لها عن التقدم الا بما زاد عليه الرؤساء من المنع عن النظر في نواميس الكون وسائر الفنون العقلية وسلب الاستقلال في الارادة والرأي ، والحرية في القول والعمل ، بحجة الدين . فلما اهتدى القوم الى هذا بما اقتبسوه من الاسلام في حروبهم الصليبية أقاموا في ضوئه أساس مدنيتهم ، ولما أحسوا بلذة المدنية طفقوا ينسلون من الدين الذي كان مانعا لهم منها ، ولكن نبذ الدين رماهم بشرور ستضطرهم الى الرجوع الى الدين يوما ما لأن كمال البشر لا يتم الا به كما قال ، وعلى الوجه الذي بينه أستاذنا في رسالة التوحيد

والاعتدال في مسألتنا الذي نريد أن نبينه هو أن الدين الاسلامي دين الفطرة لما كان مرشدا الى سعادة الدنيا والآخرة مما بيّن للناس أن لله في خلقه سننا حكيمة لا تبدل ولا تحول ، وهداهم الى السير عليها ، وشرع لهم من الاحكام ما إن تمسكوا به لن يضلوا عن طرق السعادة أبدا ، ومن السنن التي بينها القرآن بيانا كافيا وكرر القول فيها سنته تعالى في اهلاك الامم وسقوط الدول ، قال تعالى (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا) وقال تعالى (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) وقال تعالى (وما كنا مهلكي القرى الا وأهلها ظالمون)

وبيّن تعالى ان الظلم اذا وقع في أمة يعمها العذاب وان لم يواقع الظلم جميع افرادها فقال (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، واعلموا ان الله شديد العقاب) والآيات الناطقة بأن الظلم مؤذن بهلاك الامم وفساد العمران كثيرة جداء وتقابلها الآيات المبينة أن التقوى والصلاح والاصلاح والعدل ونحوها من صفات الكمال واقية من حلول البلاء، وسبب لزيادة النعماء، وهي كثيرة ايضا منها (ان الارض يرثها عبادي الصالحون) الصالح في عرف المسلمين من يقوم بحقوق الله وحقوق العباد، وقال الشيخ الاكبر قدس سره: المراد بالصالحين هنا الذين يصلحون لعمارتها وادارة اعمالها، ومنها (ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)

وقد صدرنا هذه المقالة بآية كريمة وموعظة حكيمة وهي (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) قوله تعالى وما كان ربك الخ معناه ما كان من سأنه ذلك ولم تجر سنته به، فكل آية مصدرة بذلك فهي قاعدة عامة تنبيء عن سنة ثابتة، وفسر الظلم في الآية بالشرك وهي نص على أن اصلاح الناس فيما بينهم مانع من اهلاكهم وتسليط الاعداء عليهم وان كانوا مشركين بالله تعالى، وفيها دليل على ان الايمان بالله من غير اصلاح الاعمال وعدل المال لا يمنع الاهلاك، ويؤيده قوله تعالى (فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقوله عز وجل (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم) وتأمل قوله كما استخلف الذين من قبلهم ففيه اشارة الى ان سنته تعالى واحدة وأما آية (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) فيحمل الاطلاق فيها على التقييد في الآيات الكثيرة أو يراد بالتعريف التعظيم، والمراد المؤمنون الكاملون الذين يقومون بحقوق

الايمان ، على ان الايمان يطلق كثيرا على التصديق ، والعمل الصالح معا ، والاحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة ، ومنها ماورد : ان الايمان بضع وسبعون شعبة أعلاها قول لا اله الا الله وأدناها اماطة الاذى عن الطريق .

أرشد الدين الاسلامي الى السنن الالهية وأمر بالنظر في الكون والتفكر والاعتبار ، وفصل ماتمس اليه الحاجة ، وهدانا الى ان لكل عمل أثرا لا يتعداه ، وأن الاسباب مربوطة بمسبباتها وكل سبب يفضي الى غاية ، والامور الدنيوية لا يمنعها الله عن طلابها اذا أتوا البيوت من أبوابها ، والتمسوا الرغائب من طرقها وأسبابها ، سواء كانوا مؤمنين أم كافرين ، وانما الايمان شرط للمثوبة في العقبى وكمال السعادة في الدنيا (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا) . بهذا كان الدين الاسلامي سببا في سعادة ذويه وسيادتهم عند ما كانوا مهتدين بهديه ومتمسكين بحبله ، لا بأسرار خفية وأمور غير معقولة ، لكن جهل المسلمين بتعاليم دينهم أفضى بهم الى التفرق والانقسام والميل مع الهوى ، وجهلهم بحالة العصر زادهم عمها وحيرة في الدين والدنيا . ثم لما اتصل بعض أمرائهم وحكامهم بالاوربيين رأوا أنفسهم مضطرين الى مجاراتهم وموافقتهم فقلدوهم عن غير بصيرة ، فكانوا بذلك عونا لهم على أنفسهم ، فازدادوا من الامة بغضا على بغض الظلم والفسق ، وعجز العلماء والفقهاء عن هدايتهم الى تعاليم الدين الموافقة لروح العصر لعدم وقوفهم على حالة العصر ، على أن الباحثين عن هذه التعاليم نفر قليل في كل قطر ، ولا يكادون يتسامون الى مراتب الامراء والسلاطين ، والمتصدرون جهلاء ، وعن الاصلاح بعداء ، الجماهير منهم مشغولون بالمباحث اللفظية وأساليب الكتب وخلاف الفقهاء ، والمدعون

الارشادلام لهم الا المفاخرة بالانساب ، ومناهضة بعضهم بعضاً حسدا وغواية ، وخداع العامة بأنهم في قصورهم واجدادهم في قبورهم متصرفون في الاكوان !! يشقون ويسعدون ويفقرون ويغنون ويحلون ويعقدون ويحيون ويميتون ويوم القيامة يشفعون فيشفعون (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون * كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) لأنهم مضلون يقولون على الله الكذب وهم يعلمون

فهؤلاء رؤساؤنا من الحكام والعلماء والمرشدين، هذه أحوالهم يشكو بعضهم من بعض، ولا يهتم أحد منهم الا بتحصيل رغائبه ، ونكاية مناصبه، وقد ضاعت الامة فيما بينهم – ضاع دينها باهمال التعليم والارشاد، وضاعت دنياها بترك العدل في البلاد (فصب عليهم ربك سوط عذاب * ان ربك لبالمرصاد) . وأي عذاب أشد من سوء الحال ، وضياع الاستقلال ، وانتزاع ممالكهم من أيديهم ولا حرب ولا قتال . فاذا ادعوا انهم على الاسلام فأين آثاره التي تدل عليه؟ واذا اعترفوا بالانحراف عنه فليرجعوا اليه ، والا فليتظروا من الامر ماهو أدهى وأمر، وأنكى وأضر، ولنا الرجاء بان المسلمين قد تنبهوا من رقادهم ، وطفقوا يرجعون الى رشادهم، وذلك بتعميم التربية والتعليم ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم